

الباب السادس والأربعون: في الخلق وصفاتهم وأحوالهم وذكر الحسن والقبيح والقصر والألوان والثياب وما أشبه ذلك وفيه فصول

الفصل الأول: في الحسن ومحاسن الأخلاق

وإلى سيدنا محمد رسول الله ﷺ ينتهي الحسن والجمال. كان سيدنا محمد ﷺ ربعة من القوم، لا بائناً من طول، ولا تقتحمه عين من قصر، أبيض اللون مشرباً بحمرة، أدهج^(١) العينين، مفلج الشايبا^(٢) دقيق المسربة^(٣)، أزهر الجبين، واضح الخد، أفنى الأنف كأن عنقه إبريق فضة، ظاهر الوضأة، يتلألأ وجهه تلالؤ القمر، شثن^(٤) الكفين، مسح القدمين، واسع الصدر من لبتة إلى سرتة، شعره يجري كالقضب، ليس في بطنه ولا صدره شعر غيره، أشعر الذراعين والمنكبين، لم يبلغ شبيهه في رأسه ولحيته عشرين شعرة، ضخم الكراديس^(٥)، أنور المتجرد إذا مشى كأنما ينحط من صلب وإذا التفت التفت جميعاً، بين كتفيه خاتم النبوة كأنه زرّ حجلة، أو بيض حمامة لونه كلون جسده، أبلج الوجه حسن الخلق، وسيماً قسيماً في جبينه زجج^(٦)، وفي عينيه دعج، وفي عنقه سطع وفي لحيته كثافة إن صمّت فعليه الوقار، وإن تكلم سما وعلاه البهاء، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد، وأحسنهم وأكملهم من قريب، كأنما منطقه خرزات نظم يتحدثون. قال أنس رضي الله عنه: ما رأيت من ذي لمة سواده في حلة حمراء أحسن من رسول الله ﷺ. ومدحه ﷺ حسان بن ثابت، رضي الله عنه فقال:

وأحسنَ منك لم ترَ قطُّ عيني وأجملُ منك لم تلدِ النساءِ
خُلقتَ مبرراً من كلِّ عيبٍ كأنَّك قد خُلقتَ كما تشاءُ

اللهم صلّى وسلم عليه واجعله شافعاً لمن يصلي عليه. وقال ﷺ: «ما حسن الله خلق عبد وخلقه إلا استحيا أن يطعم لحمه النار». وقد كان المتوكل رحمه الله من أحسن الخلفاء العباسيين وجهاً، وأبهاهم منظراً، وكان مصعب بن الزبير من أحسن الناس وجهاً.

-
- (١) أدهج: واسع.
 - (٢) الشايبا: الأسنان في مقدمة الفم.
 - (٣) المسربة: شعر الصدر.
 - (٤) شثن: خشن.
 - (٥) الكراديس: رؤوس العظام.
 - (٦) زجج: كثافة في شعر الحاجبين.

وحكي أنه كان جالساً ببناء داره يوماً بالبصرة إذ جاءت امرأة فوقفت تنظر إليه، فقال لها: ما وقوفك يرحمك الله؟ فقالت: طفء مصباحنا، فجننا نقتبس من وجهك مصباحاً. وقيل لأعرابية ظريفة: ما بال شفيتك مشفقة؟ فقالت: إن التين إذا حلا تشقق، والورد يتشقق إذا مسه الندى. وكانت لبابة بنت عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهم، من أجمل الناس وجهاً، وكانت عند الوليد بن عتبة بن أبي سفيان فكانت تقول: ما نظرت وجهي في مرآة مع إنسان إلا رحمته من حسن وجهي، إلا الوليد، فكنت إذا نظرت إلى وجهي مع وجهه رحمت وجهي من حسن وجهه. قال الشاعر:

ولو أنها في عهدِ يوسفَ قَطَعَتْ قلوبَ رجالٍ، لا أكفَّ نساءً
وقال كثير:

ولو أن عَزَّةَ حَاكَمَتْ شمسَ الضحى في الحسنِ عند موفِقٍ^(١) لقضى لها
ومما جاء في محاسن الخلق منظوماً على الترتيب، من الفرق إلى القَدَم.

ما قيل في الشعر: كان يقال: مَنْ تزَوَّجَ امرأةً أو اتخذ جارية فليستحسن من شعرها، فإن الشعر الحسن أحد الوجهين. قال بكر بن النطاح:

بيضاء تسحبُ من قيامِ شعرها وتقيبُ فيه وهو وجهُ أسحَم^(٢)
فكانها فيه نهاراً ساطعٌ وكأنه ليلٌ عليها مظلمٌ
وللمتبي:

نشرت ثلاثَ ذوائبٍ من شعرها في ليلةٍ فأزت لياليَ أربعاً
واستقبلت قمرَ الزمانِ بوجهها فأرتني القمرَينِ في وقتٍ معا
وله أيضاً:

لبسنَ الوشي لا متجملاتٍ ولكن كي يُصنَّ^(٣) به الجمالا
وضفَرَنَ الغدائرَ لا لحسنٍ ولكن خفنَ في الشعرِ الضلالا
وقال الصفدي:

لولا شفاعَةُ شعرِهِ في صبِّه ما كان زار ولا أزال سُقاما
لكن تنازلَ في الشفاعَةِ عنده فغدا على أقدامِهِ يترامى
وقال ابن الصائغ:

ثنى غُصْناً ومدَّ عليه فزعا كحظِّي حينَ أطلبُ منه وُضلا

(١) موفِقٍ: قاض مشهور في الحقبة الأموية.

(٢) أسحَم: بالغ السواد.

(٣) يُصنَّ: يحمين ويحفظن.

وبلبكته^(١) على الأردافِ منه
وقال آخر:

أرختي ثلاثاً يوماً حمائمِ
فقلتُ والقصدُ ذوابائهُ

وقال آخر:

بدت ثرياً قرطها وشعرها
يا عجباً لشعرها لما ابتدى

وقال ابن المعتز:

توازت عن الواشي ليل ذوائبِ
يغطي عليها شعرها بظلامه

ومما قيل في الأصدغ: قال ابن المعتز:

ريمٌ يتيه يحسن صورته
وكان عقرب صذغه وقت

وقال العادلي:

وعهدي بالعقارب حين تشو
فما بال الشتاء أتى وهذي

وقال آخر:

وما ضره نازٌ بخذيه الهبت
عناقيد صدغيه بخذيه تلتوي
شربت الهوى صرفاً زلالاً وإنما

وقال آخر:

حلّ القبا^(٣) ولوى صدغيه فانعقدًا
وأسكرتني ثناياه وريقته

ومما قيل في مدح العذار^(٤). قال أبو فراس بن حمدان:

(١) بلبكته: فرقه.

(٢) الغوال: اسم لطيب.

(٣) القبا: رداء.

(٤) العذار: السالف.

يا مَنْ يَلُومُ عَلَيَّ هَوَاهُ جِهَالَةً
حَسَنَتْ وَطَابَ نَسِيمُهَا فَكَأَنَّهَا

وقال محمد بن وهب:

صَدُودُكَ وَالْهَوَى هَتَكَ اسْتَارِي^(١)
وَكَمْ أَبْصَرْتُ مِنْ حَسَنِ وَلَكِنْ
وَلَمْ أَخْلَعْ عِذَاراً فِيكَ إِلَّا

وقال آخر:

وَمَعذِرٌ^(٢) رَقَّتْ حَوَاشِي خُدَّه
لَمْ يَكُنْ عَارِضُهُ السَّوَادُ وَإِنَّمَا

وقال آخر:

وَمَهْفَهْفٍ^(٣) رَأَيْتُ نَضَارَةً وَجْهِيهِ
أَصْلَى بِنَارِ الْخُدِّ عَنِيرٌ خَالِيهِ

وقال آخر:

أَصْبَحْتَ سُلْطَانَ الْقُلُوبِ مِلَاحَةً
طَلَعَتْ طَلَائِعُ وَجْتِيكَ مَنِيرَةً

وقال آخر:

يَا ذَا الَّذِي خَطَّ الْعِذَارَ بِخُدِّهِ
مَا صَعَّ عِنْدِي أَنْ لَحَظْتُكَ صَارِمٌ

وقال آخر:

مَنْ لَا أَرَى كَعْبَةَ الْحَسَنِ الَّتِي حُرِسَتْ
فَلْيَنْظُرِ النَّمْلُ أَضْحَى فَوْقَ عَارِضِهِ

وقال بدر الدين الدماميني:

يَحْدُثُ لَيْلٌ عَارِضِهِ بِأَنْبِي
فَأَشْرَقَ صَبْحُ غَرَّتِيهِ يَنَادِي

وقال آخر:

وَقَالُوا تَسْلَى فَقَدْ شَانَهُ

انظُرْ إِلَى تِلْكَ السَّوَالِفِ تَعَذِّرُ
سَكُّ تَسَاقَطَ فَوْقَ خُدِّ أَحْمَرِ

وَسَاعَدَنِي الْبِكَاءُ عَلَيَّ اسْتَهَارِي
عَلَيْكَ لَشَقَوَتِي وَقَعَ اخْتِيَارِي
لَمَّا عَايَنْتَ مَنْ خَلَعَ الْعِذَارِ

فَقَلْبُوبُنَا وَجَدَّأً عَلَيْهِ رِقَاقُ
نَفَضْتُ عَلَيْهِ سَوَادَهَا الْأَحْدَاقُ

وَالْعَيْنُ تَنْظُرُ مِنْهُ أَحْسَنَ مَنْظَرِ
فَبَدَا الْعِذَارُ دَخَانَ ذَاكَ الْعَنِيرِ

وَجَمَالُ وَجْهِكَ لِلْبَرِيَّةِ عَسْكَرُ
بِالنَّصْرِ يَقْدُمُهَا اللَّوَاءُ الْأَخْضَرُ

خَطَّيْنِ هَاجَا لَوْعَةً وَبِلَابِلَا
حَتَّى حَمَلَتْ بِعَارِضِيكَ حَمَائِلَا

بِالنَّمْلِ حَيْثُ مَقَامُ النَّحْلِ فِي فَمِهِ
يَطُوفُ سَبْعاً وَسَبْعاً حَوْلَ مَبْسَمِهِ

سَأَسْأَلُوهُ وَيَنْصَرُمُ الْمَزَارُ
حَدِيثُ اللَّيْلِ يَمْحُوهُ النَّهَارُ

عِذَارُ أَرَاخَكَ مِنْ صَدِّهِ

(١) استاري: فضحا ما أخفيه.

(٢) معذِر: نابت العذار.

(٣) المهفهف: ضامر البطن.

خَلَعْتُ الْعِذَارَ عَلَى خَدِّهِ

تَرَى لِعَيُونِ النَّاسِ فِيهَا تَزَاخِمًا
فِيَا حَسَنَ رِيحَانَ الْعِذَارِ جَمًّا حَمَى

فَكَأَنَّهُ نَشْوَانٌ مَنْ شَفَتِيهِ
نَعَسَتْ لَوَاحِظُهُ فَدَبَّ عَلَيْهِ

وَطَلَاوَةٌ هَامَتْ بِهَا الْعِشَاقُ
فَالْيُكْمُ هَذَا الْحَدِيثُ يُسَاقُ

وَمَقِيدًا مِنْ صَدْغِهِ بِلِسَانِهِ
فَخَشِيْتُ يَقْتُلُنِي وَذَا مِنْ شَأْنِهِ

وَحَظِيْتُ بَعْدَ الْهَجْرِ بِالْإِنْسَانِ
وَاجْعَلْ حَدِيثَكَ كُلَّهُ فِي الْكَاسِ

يَغَازِلُ بِالْأَلْحَاطِ مَنْ لَا يَغَازِلُهُ
عَلَى خَدِّهِ فَلْيَسِّقِ اللَّهُ سَائِلُهُ

وَكَانَ كَأَنَّهُ قَمَرٌ مَنِيرٌ
لَمَنْ يَقْرَأُ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ

مَتَقَبَّأَ بَعْدَ الضُّيَا بِالظَّلَمِ
ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ زَوَالُ النَّعَمِ

حَتَّى اسْتَطَالَ عَلَيْهِ صَارَ يَحْلُقُهُ
طَوَّلَ الزَّمَانَ فَمَوْسَى لَا يَفَارِقُهُ

فَقُلْتُ وَهَمُّتُمْ وَلَكِنِّي

وقال سيدي أبو الفضل بن أبي الوفاء:

عَلَى وَجْتِيهِ جَنَّةٌ ذَاتُ بَهْجَةٍ
حَمَى وَرَدَ خَدِيهِ حِمَاةَ عِذَارِهِ

وقال ابن نباتة:

وَبِمَهْجَتِي رَشَا يَمِيسُ قِوَامُهُ
شَغَفَ الْعِذَارُ بِخَدِّهِ وَرَأَهُ قَدِ

وقال الموصلي:

لِحَدِيثِ نَبْتِ الْعَارِضِينَ خِلَاوَةٌ
فَإِذَا نَهَانِي الْمَرْءُ قَلْتُ تَرَفَّقُوا

وقال آخر:

أَصْبَحْتُ مَكْسُورًا بِسَهْمِ لِحَاظِهِ
حَتَّى بَدَا سَيْفُ الْعِذَارِ مَجْرَدًا

وقال آخر:

يَا صَاحِبَ قَدِ حَضَرَ الْمَدَامُ وَمُنِيَّتِي
وَكَسَا الْعِذَارُ الْخَدَّ حَسَنًا فَاسْتَقْنِي

وقال ابن نباتة:

وَضَعْتُ سِلَاحَ الصَّبْرِ عَنْهُ فَمَا لَهُ
وَسَالَ عِذَارٌ فَوْقَ خَدِّيهِ سَائِلُ

ومما قيل في ذم العذار. قال الشاعر:

غَدَا لِمَا التَّحَى لِيلاً بِهَيْمًا
وَكَتَبَ السَّوَادَ بَعَارِضِيهِ

وقال آخر في ذمه:

قُلْتُ لِأَصْحَابِي وَقَدْ مَرَّ بِي
بِاللَّهِ يَا أَهْلَ وَدِّي فَعُومُوا

وقال آخر:

مَا زَالَ يَتَسَفَّرُ رِيحَانًا بَعَارِضِيهِ
كَأَنَّمَا طُورَ سِينَا فَوْقَ عَارِضِيهِ

وقال آخر:

أن لا يزال مدى الزمان مصاحبي
فتعجبوا لسواد وجه الكاذب

ولم يكن فرج من طول جفونه
واستز ملاحه خذيه بلحيته

ومن ناصر الريحان خضرة حاجب
ومن حالك الحبر اسوداد الذوائب

وهب علي الجيش من كل جانب
وميمنة تقضي بزج الحواجب

ويا غصناً يميل مع الرياح
صباحاً في صباح في صباح
ومما قيل في العيون. قال الأصمعي ما وصف أحد العيون بمثل ما وصف أحمد بن الرقاع في قوله:

عيني أحور من جاذر^(١) جاسم
في جفنه سنة وليس بنائم

سريع بكسر اللحظ والقلب جازع
كما لأن مثن السيف والحد قاطع

ولا تقرت لها أبداً رجلاً
يكذن يكذن^(٢) بالحرق الرجلاً

هززن سيفاً واستلن خاجراً
فغادزن قلبي بالتصير غادراً
ومسن غصوناً والتفتن جاذراً^(٣)

ما زال يحلف لي بكل ألية
لما جن نزال العذار بخده

وقال ابن المعتز:

يا رب إن لم يكن في وصله طمع
فاشف السقام الذي لخط مقلته

ومما قيل في الجبين والحواجب. قال خالد الكاتب:

لها من طباء الرمل عين مريضة
ومن يانع الأغصان قد وقامة

وقال آخر:

غزاني الهوى في جيشه وجنوده
بميسرة أجنادها أعين المها

وقال آخر:

أيا قمرأ تبسم عن إقحاح
جيبك والمقبل والثنايا

ومما قيل في العيون. قال الأصمعي ما وصف أحد العيون بمثل ما وصف أحمد بن الرقاع في قوله:

وكانما دون النساء أعازها
وسنان أقصده النعاس تلاعبت

وقال ابن المعتز:

عليم بما تحت العيون من الهوى
فيجرح أحشائي بعين مريضة

وقال الأخطل:

ولا تلمم بدار بني كليب
تري فيها بوارق مرهفات

وقال أبو فراس وأحسن:

وييض بالحاظ العيون كأنما
تصدئن لي يوماً بمنعرج اللوى
سفنن بدورا وانتفنن أهلة

(١) جاذر مفرد: جؤذر: ولد النعام.

(٢) يكذن يكذن: أي يقاربن إكداد الرجال.

(٣) جاذراً: أربع حالات في أربع أوصاف: بدور عند الأسفار: أهلة عند الانتقاب. غصوناً في الشبي. جاذراً في رشاقة الالتفات.

وقال آخر:

نحو امرىء إلا رماءُ بَحْتِفِهِ
والردفُ يجذبُ خصرَهُ من خلفِهِ
سَلَّمُ فؤادٍ محبِّهِ مِن ظَرْفِهِ

ومريضُ جفني ليس يصرفُ طرفَهُ
قد قلتُ إذ أبصرْتُهُ متمائلاً
يا من يُسَلِّمُ خصرَهُ من ردفِهِ

وقال أبو هتان:

سهامٌ من جفونِكَ لا تطيشُ
بهنَّ ولا سوى الأهدابِ ريشُ
سقيماً لا يموتُ ولا يعيشُ
من البُلوى أناخَ به جيوشُ

أخو دنفٍ^(١) رَمْتُهُ فَأَقْصَدْتُهُ
فَوَاتِكَ لا يقالُ سوى احورارِ
أَصْبَنَ فؤادَ مهجِّهِ فَأُضْحَى
كثيلاً إن تَرَخَلَ عَنْهُ جيثُ

وقال آخر:

فصَبُّوا عليه الماءَ من شدَّةِ النكسرِ
ولو أنصَفُوا قالوا بهِ أعيُنُ الإنسِ

وجَاءوا إليه بالتعاويدِ والرقى
وقالوا به من أعيُنِ الجنِّ نظرةٌ

وقال عز الدين الموصلي:

مكحَّلةٌ ولي عيُنِ تباكَتْ
فيا لكِ مقالةٌ غَزَلْتُ وَحَاكَتْ

لها عيُنٌ لها غَزْوٌ وَغَزَلٌ
وحَاكَتْ في فعائلِهَا المواضي

وقال برهان الدين القيراطي:

مَنْ لقتلي بينَ الأنامِ اسْتَحَلَّ
حَدُّنا دونَ ذاكِ حاشى وكلاً

شَبَّهُ السيفِ والسنانِ بَعَيْنِي
فأتى السيفُ والسنانُ وقالاً

وله أيضاً:

حَسَدَ الأسمُرِ المَثَقَفُ قَدَّهُ^(٢)
كَلَمَّتْنِي سِيوفُهُنَّ بِحَدَّهُ

بأبى أهيفُ المعاطفِ لَنْدُنْ
ذو جفونٍ مذ رمَتْ منها كلاماً

وقال بدر الدين بن حبيب:

وَأَتَسْتُ بَخِطٌ عذارِهِ تَذَكَاراً
فَالخِطُّ زورٌ والشهودُ سُكَارَى

عيناهُ قد شهدتْ بأبى مخطيءُ
يا حاكمَ الحبِّ اتَّيَدُ في قتلتي

وقال جلال الدين بن خطيب داريا:

منسي وأن ودادةً تكليـفُ
خبرٌ رواهُ الجفنُ وهوَ ضعيفُ

شهدتْ جفونُ معدَّبِي بملالو
لكنتني لم أنأ عنه لأنَّهُ

(١) دنف: شدة السقم.

(٢) قَدَّهُ: أي السيف حده.

وقال الشيخ عز الدين الموصلي:

يا مقلّة^(١) الحب مهلاً
وأنت يا وجيتيه

وقال ابن الصائغ:

لمثلي من لواحظها سهام
إذا رامت شك فؤاداً

وقال الصلاح الصفدي:

يا عاذلي على عيني محجبة
وخذ فؤادي ودعه نضب مقلتها

وقال آخر:

بسهم أجزائي رماني
إن مت ما لي سواه خصم

وقال آخر:

سهام الجفن كم قتلت لنفس
فما أقوى جفونك وهي مرضى

ومما قيل في الخال؛ للصلاح الصفدي:

بروحي خده المحمر أضحى
كان الحسن يعشقه قديماً

ولابن الصائغ:

بروحي أفدي خاله فوق خده
تبارك من أخلى من الشعر خده

وللشيخ جمال الدين بن نباتة:

لله خال على خد الحبيب له
أورثه جبة القلب القليل به

وقال آخر:

يا سالباً قمر السماء جماله
أحرق قلبى فارتمى بشرارة

وللشيخ تقي الدين بن حجة:

فقد أخذت بشارك
لا تحرقيني بشارك

لها في القلب فتك أي فتك
يموت المستهام بغير شك

خف سحر ناظرها فالسحر فيه خفي
لا تزم نفسك بين السهم والهدف

فذبت من هجره وبينه
لأنه قاتلي بعينه

ميرة من السلوى زكية
واقدرها على قتل البرية

عليه شامة شزط المحبة
فقطه بدينار وحبه

ومن أنا في الدنيا فأفديه بالمال
وأسكن كل الحسن في ذلك الخال

في العاشقين كما شاء الهوى عبث
وكان عهدي بأن الخال لا يرث

أبستني في الحزن ثوب سمائه
علقت بخدك فانطقت في مائه

قلتُ للخال إذ بَدَا
فزت يا عبدُ قال لي
في نقأ جِيدِهِ السعيدِ
أنا عبدٌ لكلِّ جيدِ

وقال ابن أبيك:

في الجانبِ الأيمنِ من خدِّها
حسبُهُ لما بَدَا خالها
نقطةٌ مسكٍ أشتهي شَمَّها
وجَدْتُه من حسنها عَمَّها

وقال الحسين بن الضحاك:

يا صائدَ الطيرِ كم ذا
نصبتَ نقطةَ خالِ
باللحظِ تُضنِّي وتُسبِّي
فصِدتَ طائرَ قلبي

ومما قيل في الخدود. قال ابن المعتز:

صلُّ بخدي خديك تلقَّ عجباً
فبخديك للريبعِ رياضُ
من معانٍ يحارُّ فيها الضميرُ
وبخديَّ للدموعِ غديرُ

وقال آخر:

وردُّ الخدودِ ونرجسُ اللحظاتِ
شيءٌ أسرُّ به وأعلمُ أنَّه
وتصافُحُ الشفتينِ في الخلواتِ
وحياتِه أحلى من اللذاتِ

ومما قيل في الثغور. قال يوسف بن مسعود الصواف:

بروحي مَنْ ولى^(١) فولى بمهجتي
حمى ثغره مني بسيفِ لحاظِه
ورلى منامي وهو كالوَضلِ شارِدِ
وحَتامَ يحمي ثغره وهو باردِ

وقال آخر:

أنفقتُ كنزَ مدامعي في ثغره
وطلبتُ منه جزاءً ذلك قبلةً
وجمعتُ فيه كلَّ معنى شارِدِ
فمضى وراحَ تغزُّلي في الباردِ

وقال آخر:

رأى ثغره من أهوى عذولي فقال لي
شغلَّتْ بهذا وارتبطتُ بحسنِه
ولم يذرْ أنَّ اللومَ في خدِّه يغري
وأحسنُ ما كان الرباطُ على ثغره^(٢)

وقال ابن ريان:

لاحتُ على ميسمِه المشتهى
لا تعجَّبوا إن كثرتْ حولِه
ثلاثُ شاماتٍ غَدَت في الشامِ
فالمهَلُّ العذبُ كثيرُ الزحامِ

ومما قيل في طيب الريق والنكهة. قال ذو الرمة:

(١) ولى: أعرض.

(٢) الثغر: الفم وكذلك الخدود.

عروب^(١) كإيماض الغمام ابتسامها
زجاجة خمير طاب فيها مداؤها

بشرب راح تعطُّر
فالشبيء بالشبيء يُذكر

ولم يكن لي صبْرُ
فأولُ الغيثِ قَطْرُ

من قهوة مُزججت بماء الكوثرِ
يرويه نضاً عن صحاح الجوهري

ملاخ أدلتها واضحه
هي الطعمُ واللونُ والرائحة

بستوره كالبذر بين غيومه
فسكرت في الحالين من خرطوميه

رشفت فكدت^(٣) منه فلن أفيقا
جهلت بأن في الأسماء ريقا

تعجّب رائسي الدرّ حسناً ولاقطنة
ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطة

يوم ولم نشرّب شراباً ولا خمرا
وإن نطقت هاجت لألباننا سكرًا

أسيلة مجرى الدمع هيفاء طفلة
كأن على فيها وما ذقت طعمه

قال شهاب الدين الكردي:

ذكرت ربح حبيبي
وليس ذا بعجيب

وقال غيره:

رشفت ريقك خلوا
وسوف أحظى بوصل

وقال الصلاح الصفدي:

نقل الأراك^(٢) بأن ريقه ثغره
قد صح ما نقل الأراك لأنه

وقال آخر:

ثلاث تجمّعن في ثغرها
فإن قيل ما هي قل لي أقل

وقال آخر:

يا ربّ ممتنع الوصال محجّب
دارت مراشفه عليّ وكأسه

وقال آخر:

أريقاً من رضابك أم رحيقاً
وللصهباء أسماء ولكن

ومما قيل في حسن الحديث. قال البحري:

ولما التقينا والتقا موعداً لنا
فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها

وقال سلم الخاسر:

ظللنا فبتنا عند أم محمّد
إذا صمتت عنا ضجرنا لصمتها

(١) عروب: عفيفة عن الفحش.

(٢) الأراك: بنت طيب العرق.

(٣) كدت: تعبت.

وقال ابن الرومي:

يمسي ويصبح معرضاً فكأنه
ليست إساءته بناقصة له
ملكٌ عزيزٌ قاهرٌ سلطانه
دُرٌّ يساقطه إليّ لسانه

وما أحسن هذه الأبيات، وهي من طارف الشعر ووافره وناقده وجيد الكلام وبارع الوصف:

وكل حديث الناس إلا حديثها
جرّخنَ بأعناقِ الظباءِ وأعينِ الـ
رجيئٍ وفيما حدّثتكَ الطرائفُ
جسّادِرٍ وارتجّتْ بهنَّ الروادفُ
جذالٍ وأعضاءٍ عليها المطارفُ
رجّحنَ بأردافٍ ثقالٍ وأسوقِ

ومما قيل في رقة البشارة. قال ابن المعتز^(١):

نفتت^(٢) عنها القميصَ لصبِ ماءٍ
وقابلتِ الهواءَ وقد تعرّتْ
ومدّتْ راحةً كالماءِ منها
فلما أن قضتْ وطراً وهمّتْ
رأتْ شخصَ الرقيبِ على التدانِي
فغابَ الصبحُ منها تحتَ ليلِ
فوزّد خدّها فرطُ الحياءِ
بمعتدلِ أرقٍ من الهواءِ
إلى ماءٍ مُمدّدٍ في إناءِ
على عجلٍ إلى أخذِ الرداءِ
فأسبّلتِ الظلامَ على الضياءِ
وظلّ الماءُ يقطرُ فوقَ ماءِ

وقال آخر:

تغيّرَ عن موذّبه وحالا^(٣)
وعلمتهُ التبدّلُ كيفَ هجري
تري من فوقِ حقويه^(٤) قضيباً
إذا كلّمتهُ أتّبرتَ فيه

وقال بشار:

وما ظفرت عيني غداة لقيتها
كحوراء من حور الجنانِ غريرة^(٥)
بشيءٍ سوى أطرافها والمحاجر^(٥)
يرى وجهه في وجهها كلُّ ناظرٍ

ومنه أخذ أبو نواس قوله:

نظرتُ إلى وجهه نظرةً
فأبصرتُ وجهي في وجهه

(١) المحفوظ أنها لأبي نواس.

(٢) نفتت: خعلت.

(٣) وحالا: تحول.

(٤) حقويه: أي فوق الخصر.

(٥) المحجر: العين.

(٦) غريرة: ساذجة - غير مجربة.

وقال آخر:

توهّمه قلبي فأصبح خدّه
ومرّ بفكري جسمه فجرحته

وفيه مكان الوهم من نظري أنز
ولم أر جسماً قط تجرحه الفكر

وقال آخر:

سقى الله روضاً قد تبدّى لناظر
وقد نضحت خداه من ماء ورده

به شادن^(١) كالغصن يلهو ويمرّح
وكلّ إناء بالذي فيه ينضح

وقال آخر:

وأهيفَ فدّه كيسي احمراراً
فلو أحجلته بالقول جهدي

وحاز الحسن فهو بلا شبيه
لحمرة خدّه ما بان فيه

ومما قيل في التقبيل . قال المظفر الأعمى :

قبّلته فتلطّى جمراً وجتبه
وجال بينهما ماء ولا عجب

وناح من عارضيه العبر العبق^(٢)
لا ينطفي ذا ولا ذا منه يحترق

وقال آخر:

سألته في ثغره قبله
فهاكها في الخد واقنع بها

فقال ثغري لم يجز لثمه
ما قارب الشيء له حكمه

قال صاحب حماة:

قال الذي يئمني
يبروم مني قبله

قولوا لمن خبلته^(٣)
لو مات ما قبلته

وقال الشيخ عز الدين الموصلي:

كالزرد المنظوم أصداغه
بالغث في اللثم وقبّلته

وخدّه كالورد لما ورد^(٤)
في الخدّ تقبيلاً يفكّ الزرد

وقال آخر:

رأيت الهلال على وجهه
سوى أنّ ذاك بعيد المزار
وذاك يغيبُ وذا حاضر

فلم أدر أيهما أنور
وهذا قريب لمن ينظر
وما من يغيبُ كمن يحضر

(١) الشادن: الغزال.

(٢) العبق: الفواح.

(٣) الخبل: ذهاب العقل.

(٤) ورد: أتى.

ونفعُ الهلالِ قليلٌ لنا

وقال ابن صابر:

قَبَلْتُ وَجَّتَهُ فَأَلْفَتَ جَيْدَهُ
فَانهَلَّ مِنْ خَدَّيْهِ فَوْقَ عِذَارِهِ
فَكَأَنَّيَ اسْتَقَطَرْتُ وَرَدَّ خَدُودِهِ

وقال آخر:

قَبَلْتُ رَجُلًا حَبِيبِي
وَقَالَ تَلْتُمُ رَجُلِي
فَقَلْتُ مَا جِئْتُ بِسَدْعَاءَ
رَجُلٍ سَعَتْ بِكَ نَحْوِي

ومما قيل في الوجه الحسن لابن نباتة:

إِنْسِيَّةٌ فِي مِثَالِ الْجِنَّ تَحْسُبُهَا
شَقَّتْ لَهَا الشَّمْسُ ثَوْبًا مِنْ مَحَاسِنِهَا

وقال عبد الله بن أبي خبيص:

تَصَدُّ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ
كَأَنَّهَا حِينَ تَدْنُو
وَإِنْ أَضَاءَتْ بِلَيْلِي

وقال آخر:

أَقْسِمُ بِاللَّهِ وَأَيَّاتِهِ
وَلَا بَدَأَ وَجْهَهُ لِي طَالِعًا

وقال آخر:

أَقِيمِي مَكَانَ الْبَدْرِ إِنْ أَفَلَّ^(٣) الْبَدْرُ
فَفِيكَ مِنَ الشَّمْسِ الْمَنِيرَةِ نَوْرُهَا

وقال عمر بن أبي ربيعة:

ذَاتَ حَسَنِ إِنْ تَغَيَّبَ شَمْسُ الضُّحَى
أَجْمَعَ النَّاسُ عَلَيَّ تَفْضِيلَهَا

ونفعُ الحبيبِ لنا أكثرُ

خَجَلًا وَمَاسٍ بِعَطْفِهِ الْمِيَّاسِ^(١)
عَرَقٌ يَحَاكِي الطَّلَّ فَوْقَ الْآسِ
بِتَصَاعِدِ الزَّفَرَاتِ مِنْ أَنْفَاسِي

فَازْوَرَّ وَاحْمَرَّ خَدَا
لَقَدْ تَنَازَلْتَ جَدَا
وَلَا تَجَاوَزْتُ حَدَا
حَقُوقُهَا لَا تَوُدِّي^(٢)

شَمْسًا بَدَتْ بَيْنَ تَشْرِيقٍ وَتَغْمِيمٍ
فَالْوَجْهُ لِلشَّمْسِ وَالْعَيْنَانِ لِلرِّيمِ

بِالْعَزِّ أَضَحَّتْ مِذْلُكُ
شَمْسٌ عَلَيْهَا مِظْلُكُ
تَفُوقَ نَوْرِ الْأَهْلُكُ

مَا نَظَرْتُ عَيْنِي إِلَيَّ مِثْلِيَّةٍ
إِلَّا سَأَلْتُ اللَّهَ مِنْ فَضْلِيَّةٍ

وَقَوْمِي مَقَامَ الشَّمْسِ قَدَامَهَا الْفَجْرُ
وَلَيْسَ لَهَا مِنْكَ التَّبَسُّمُ وَالثَغْرُ

فَلَنَا مِنْ وَجْهَهَا عَنْهَا خَلْفٌ
وَهَوَاهِمَ فِي سَوِيِّ هَذَا اخْتَلَفٌ

(١) ماس: تثنى.

(٢) توُدِّي: أي لا يستطيع مكافئتها.

(٣) أفل: غاب.

أخذ أبو تمام المعنى فردّه إلى المدح فقال:
لو أن إجماعنا في فضلِ سؤددهِ
وقال آخر:

في الدينِ لم يَخْتَلِفْ في الأمةِ اثنا

مَنْ دَلَّ عَيْنِيكَ عَلَى قَتْلِي
وَالشَّمْسُ مِنْ نوركِ تَسْتَمْلِي

يا مفرداً في الحسنِ والشكلِ
البدرُ من شمسِ الضحى نورهُ

وقال آخر:

فما أنا أدري أيها هاج لي كربى
أم النطقُ في سَمْعِي أم الحبُّ في قلبي

ففي أربعِ مني حَلَّتْ منك أربعُ
أوجهُكَ في عيني أم الريقُ في فمي

فلما سمعه إسحاق بن يعقوب الكندي قال: هذا تقسيم فلسفي، وجعله العلوي خمسة فقال:

فريقُكَ منها في فمي طيَّبَ الرشفِ^(١)
ونطقُكَ في سَمْعِي وَعَرَفُكَ^(٢) في أنفي

وفي خمسةِ مني حَلَّتْ منك خمسةُ
ووجهُكَ في عيني ولمسُكَ في يدي

وقال ابن نباتة:

مَنْ غدا في صفاتِهِ القلبُ ذائبُ
إنَّ في الليلِ والنهارِ عجائبُ

أيها العاذلُ الغبيُّ تاملُ
وتعجَّبْ لطرَّةِ وجيِّينِ

وقال محمود المخزومي:

فكنتَ على عيني أبهى من الشمسِ
وشمسُ الضحى ليست تضيءُ إذا تمشي

رأيتُكَ في الشمسِ المنيرةِ غدوةُ
لأنك تزهو إن بدا الليلُ بهجةُ

وقال آخر:

وتكفي فَقَدَ البدرِ إن غربَ البدرُ
ووالله ما مِنْ ريقِها حسبُكَ الخمرُ

إذا احتجَّبتَ لم يكفِكَ البدرُ وجهُها
وحسبُكَ من خميرِ مذاقةِ ريقِها

ومما قيل في البنان المخضب. قال ابن الرومي:

ظيئةٌ من مخدَّراتِ^(٣) العراقِ
أسرَّتْ قلبَ صيِّها المشتاقِ
أنا من لطفِ صنعةِ الخلاقِ
قد صبَّغناه من دمِ العشاقِ

وقفتُ وقفَةً بيبابِ الطاقِ
بنتُ سبعِ وأربعِ وثلاثِ^(٤)
قلتُ مَنْ أنتِ يا غزالُ فقالتُ:
لا ترمُ وضاننا فهذا بنانُ

(١) الرشف: الإرتشاف والمص.

(٢) العُرف: الريح الطيبة.

(٣) مخدَّرات: نبات خدور وأستار.

(٤) بنت أربع عشرة سنة.

وقال الراضي بالله:

قالوا الرحيلُ فأنشبت أظفارها
فظننتُ أن بنائها من فضة

وقال آخر:

لما اعتنقنا للوداع وأعرت
فرقن بين محاجرٍ ومعاجر^(١)

وقال آخر:

ولما تلاقينا رأيتُ بنائها
فقلت خضبت الكفَّ بعدي أهكذا
فقلت وأذكت في الحشا لاجع^(٢) الجوى
بكيثُ دماً يومَ النسوى فمسحته

وقال آخر:

دنونَ عشيةَ التوديع مني
فلم يمسخن إكراماً جفوني

ومما قيل في النحور. قال دعلج:

أتاح لك الهوى بيضاً حساناً
نظرت إلى النحور فكذت تفضي

ومما قيل في نعت النهود. قال العباس بن الأحف:

والله لو أن القلوب كقلبها
جال الشواخ على قضيب زانه

وقال آخر:

ومحبوبة عند الوداع رأيتها
وتبكي حذارَ البين منها بدمعة
فتحسب مجرى الدمع من وجناتها

(١) المعاجر: نوع من الألبسة.

(٢) العندم: نبات أحمر.

(٣) لاجع الجوى: شدة الشوق.

(٤) الوالد: أي قلبها قاس.

(٥) الممسك: الرداء المدهون بالمسك.

وصدر به نهد بحق^(١) مفكك

قد امتدّت عيون الكاشحين^(٢)
حصيناً من أكفّ اللامسينا

ركنان لم يدنسا من لمس مستلم
فالناس في الحلّ والركنان في الحرم

ودرّ زانسه حسن اتساق
أهذا الحلّي من هذي الحقاق
جعلن من الحقاق على وفاق
سوى منع المحب من العناق

بيض مرهفات وهي سود
بسمير من أسنتها النهود

مقرونة بمدامة من ثغرها
عجبا ولكني بكيث لخصرها

أعدّ الخصر والقوام السويّا
فضيفان يغلبان قويّا

تُبيدي وأنت نحيل
ما أنت إلا بخيل

تحت الحنين لعيني

وقد سفرت عن غرّة بابليّة

وقال عمرو بن كلثوم:

نراك إذا دخلت على خلاء
لنهد مثل حقّ العاج حسناً

وقال آخر:

بصدرها كوكبا دُرّ كأنهما
صاتتُهما بستورٍ من غلاتها

وقال آخر:

صدورٌ فوقهنّ حقاقٍ عاج
يقبول الناظرون إذا رأوه
وما تلك الحقاق سوى ثديي
نواهد لا يُعدّ لهنّ عيب

وقال آخر:

لقد فتكت عيون الغيد^(٣) فينا
وتطعننا القود إذا التقينا

ومما قيل في الأرداف والخصور. قال ابن الرومي:

وشربت كأس مدامة من كفها
وتمايلت فضحك من أردافها

وقال الطنبغا المحاربي:

ردفهُ زاد في الثقاله حتى
نهض الخصر والقوام وقالا

وقال آخر:

يا خصرة كم جفاء
يا ردفهُ ملّت عني

وقال القيراطي:

بلدت روادف بـذري

(١) الحق: إناء.

(٢) الكاشحين: الأعداء.

(٣) الغيد: مفردة غيداء: الحسناء ذات العنق المميز.

فقلتُ يا بَدْرُ هذا حقاً خيالٌ لحيني

وقال آخر:

أَسْأَلُهَا أَيْنَ الْوِشَاحِ وَقَدْ سَرَتْ
فَقَالَتْ وَأَوْمَتْ لِلسَّوَارِ نَحْلَتُهُ
مَعْطَلَةٌ مِنْهُ مَعْطَرَةٌ النَّشْرِ^(١)
إِلَى مَعْصَمِي لَمَّا تَلَقَّلْتُ^(٢) فِي خَصْرِي

وقال آخر:

بِئْزُ وَلَيْلٌ وَجَتَّاهُ وَشَعْرُهُ
أَقْسَى مِنَ الْحَجَرِ الْأَصَمِّ فَوَادُهُ
يِيضٌ وَسَمْرٌ مَقْلَتَاهُ وَقَدُّهُ
أَرْقٌ مِنْ شَكْوَى الْمَيْمِ خَصْرُهُ

وقال آخر:

رَخِيمَاتُ الْمَقَالِ مَدَّلَاتُ
جَمْعَنَ فَخَامَةٌ وَخَلُوصَ جِيدِ
جَوَاعِلُ فِي الشَّرَى قُضِبًا جَذَالًا^(٣)
وَقَدًّا بَعْدَ ذَلِكَ وَاعْتَدَالًا
وَمَا قِيلَ فِي الْمَعَاصِمِ . قَالَ عُمَرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ:

حَسَرُوا الْوَجُوهَ بِأُذْرِعٍ وَمَعَاصِمِ
حَسَرُوا الْأَكْمَةَ عَنْ سَوَاعِدَ فَضَّةٍ
وَرُنُّوا بِنَجْلِ الْقُلُوبِ كَوَالِمِ^(٤)
فَكَأَنَّمَا اتَّصَبَتْ مَتُونٌ صَوَارِمِ

وَمَا قِيلَ فِي اعْتَدَالِ الْقَوَامِ . قَالَ صِلَاحُ الدِّينِ الصَّفْدِيِّ:

تَقُولُ لَهُ الْأَغْصَانُ مَذْهَرًا عَطْفُهُ
فَقَمِ نَحْتَكُمُ لِلرُّوْضِ عِنْدَ نَسِيمِهِ
أَتَزَعَمُ أَنْ اللَّيْنَ عِنْدَكَ مَا نَوَى
لِيَقْضِيَ عَلَيَّ مَنْ مَالٍ مَنَّا إِلَى الْهَوَى

وقيل: ليس لأحد من شعراء العرب في نعت محاسن النساء من الأوصاف البارعة مع جودة السبك ورقة اللفظ ما لذي الرمة حتى كأنه حضري من أهل المدن لا من أهل الوبير.

وقال القاضي مجد الدين بن مكناس:

أَقُولُ لِحَبِّي قُمْ وَمِلْ يَا مَعْدَبِي
وَلَا تَلْهُ عَنْ شَيْءٍ إِذَا مَا حَكَيْتَهَا
كَمَيْلَةَ خَوْدِ^(٥) غَيْرِ السُّكْرِ حَالِهَا
فَقَامَ كَفَصْنِ الْبَانِ لِينًا وَمَالِهَا

وقال آخر:

وَمَحْكَمٍ أَعْطَا فُهُ
فَاعْجَبْ لِعَادِلِ قَدِّهِ
فِي قَتْلِ صَبٍّ مَا عَوَى
فِي النَّفْسِ يَحْكُمُ بِالْهَوَى

(١) النشر: الراححة .

(٢) تلقلق: صار فضفاضاً .

(٣) جذالاً: مرحات .

(٤) كوالم: جوارح .

(٥) خود: الفتاة الناعمة الجميلة .

وقال آخر:

يوماً إليّ فصحتُ من ألمِ الجوى
فأجابَ كيفَ وأنتَ من أهلِ الهوى

ومهفهفٍ عني يميلُ ولم يَمِلْ
لِمَ لا تميلُ إليّ يا غصنَ النَّقا

ومما قيل في الساق. قال ذو الرمة:

عن ساقِهِ كاللؤلؤِ البراقِ
إن القيامةَ يومَ كشفِ الساقِ^(١)

لم أنسهُ إذ قام يكشفُ عامداً
لا تعجّبوا إن قامَ فيه قيامتي

وقال آخر:

كلسؤلؤٍ يبدو لعشاقها
وقامتِ الحربُ على ساقها

جاءتِ ساقٍ أبيضٍ أملسٍ
فافتتت فيها جميعُ السورى

وقال ابن منقذ:

ظنّي ولكنّه أنيسُ
فما لأعطافه تميمسُ^(٢)

بدؤُ ولكنّه قريبُ
إن لم يكنْ قدهُ قضيماً

ومما قيل في مشي النساء. قال بعضهم:

هزَّ الشمالِ ضحى عيدانِ نسرينِ
أيدي الرجالِ فزادَ المتنُّ في اللينِ

يهززن للمشي أطرافاً مخضبةً
أو كاهتزازِ رديني تداولهُ

وقال آخر:

قبَّ البطون^(٤) رواجحِ الأكفال^(٥)
يقلّعن أجلهنّ من أوحالِ

يمشِين مَشِي قَطَا البِطَاحِ تَأوُّدا^(٣)
فكأنهنّ إذا أردنَ زيارةً

ومما قيل في العناق وطيبه. قال ابن المعتز:

وأهونَ السقمِ إلى العائِدِ
تنفّستُ في ليلها الباردِ
حسبنا في جسدِ واحدِ

ما أقصرَ الليلَ على الراقِدِ
كأنني عانقتُ ريحانةً
فلو ترانا في قميصِ الدجى

وقال آخر:

وأعزُّهُ من ساعِدَيّ وشاحِه

وموشحِ نازعتُ فضلَ وشاحِه

(١) كشف الساق: «والفتت الساق بالساق».

(٢) تميمسُ: تميل.

(٣) تأوُّدا: تمايل دلاً.

(٤) قبَّ البطون: بيطن كالقبة.

(٥) الأكفال: عظيماات الورك.

وأمال أعطافاً عليّ ملاحا

ولليل في كلّ فجّ يبدُ
فلله ما ضَمَّنَا المسجدُ
فلا تَدُنْ من ليلتي يا غدُ
كما ليلةُ الهجيرِ لا تنفدُ

كواكبُهُ من بديره المتألقِ
تميتُ الهوى ما بينَ صدرٍ ومرفقِ

مختلسات حذارَ مرتقبِ
من النواطيرِ^(٢) يانعِ الرطبِ

فغصنٌ وأمّا قَدُّها فقضيبُ
لتطلعُ أحياناً له فيغيبُ
وغصنُ الهوى غَضُّ النباتِ رطيبُ
وأنتَ الهوى أدعى له فأجيبُ

وأدنى فؤاداً من فؤادِ معذبِ
منَ الخمرِ فيما بيننا لم تسربِ

حسبي بوجهِ معذبِي مصباحا
خمرأً وحسبي خدُّه تَفَاحا
مستغنياً عن كلِّ نجمٍ لاحا
وجعلتُ كَفِّي للشامِ وشاحا
متعانقينِ فلا نريدُ براحا

باتَ الغيورُ يشقُّ جلدَةَ وجهِهِ

وقال ابن المعدل:

أقولُ وجَنَحُ الدُّجى مسبلُ
ونحنُ ضجيجانِ في مسجدِ
أيا غَدُ إن كنتَ لي محسناً
ويا ليلةَ الوصلِ لا تقصُري

وقال آخر:

وليلِ رقيقِ الطرَّتَيْنِ^(١) تظلمتُ
لهوَنًا بغزلانِ الصريمَةِ تحتهُ

وقال ابن المعتز:

وكم عناقٍ لنا وكم قُبُلِ
نقرِ العصافيرِ وهي خائفَةٌ

وقال ديك الجن:

ومعدولةٍ مهما أمالتُ إزارها
لها القمرُ الساري شقيقٌ وإنها
أقولُ لها والليلُ مُزخِ سدولِهِ^(٣)
لأنتَ المنى يا زَيْنَ كلِّ مليحةٍ

وقال علي بن الجهم:

سقى الله ليلاً ضَمَّنَا بعد فرقةٍ
فيتنا جميعاً لو تُرَاقِ زجاجةُ

وقال آخر:

يا ليلُ دُمُ لي لا أريدُ براحاً
حسبي به نوراً وحسبي ريقُهُ
حسبي بمضحكِهِ إذا استضحكْتُهُ
طَوَّقْتُهُ طَوَّقَ العناقِ بساعِدِ
هذا هو اليومُ النعيمُ فخلنا

(١) الطرَّتَيْنِ: الأطراف.

(٢) الناطور: الحارس.

(٣) سدوله: منزلُ أستاذه.

وقال آخر:

ولم أنسَ ضمِّي للحبيب على رضا
ولا قولهُ لي عندَ تقييلِ خَدِّهِ
ورشفي رضاباً كالرحيقِ المسلسلِ^(١)
تَنقُلُ فَلَذَاتُ الهَسْوَى فِي التَنقُلِ

ومما قيل في السمن. قال الربيع بن سليمان سمعت الشافعي رضي الله عنه يقول: ما رأيت سميناً عاقلاً إلا محمد بن الحسن. قال الشاعر:

لا أعشَقُ الأبيضَ المنفوخَ من سمنِ
إني امرؤُ أركبُ المهرَ المضمَرَّ^(٢) في
لكنني أعشَقُ السُّمَرَ المهازيلا
يومِ الرهَابِ، وغيري يركبُ الفيلا

وما قيل في مدح الألوان والثياب، مدح البياض: قال رسول الله ﷺ: «البياضُ نصفُ الحسن»، وكان ﷺ أبيضَ أزهر اللون مشرباً بحمرة. قال الشاعر^(٣):

بيضُ الوجوهِ كريمةٌ أحسابُهُم
شمُّ الأنوفِ من الطرازِ الأولِ

ومما قيل في مدح السواد. قيل لبعضهم: ما تقول في السواد؟ قال: النور في السواد. أراد بذلك نور العينين في سوادهما. وقال بعضهم:

قالوا تعشَقْتَهَا سوداءَ قلتُ لهم
إني امرؤُ ليسَ شأنُ البيضِ مرتفعاً
لونُ الغوالي ولونُ المسكِ والعودِ
عندي ولو خلتُ الدنيا من السودِ

وقال الحيقطان:

لئن كنتَ جعدَ الرأسِ واللونُ فاحمٌ
فإنني بسيطُ الكفِّ والعرضُ أزهراً

ومما قيل في الوجه الحسن:

إن سوادَ اللونِ ليسَ بضائري
إذا كنتُ يومَ الروعِ بالسيفِ أخطرُ

ودخل إبراهيم بن المهدي على المأمون فقال: إنك لنعم الخليفة الأسود، فقال إبراهيم نعم، فتمثل المأمون بيت نصيب، فقال:

إن كنتُ عبداً فنفسِي حرّةٌ كرماً
أر أسودَ اللونِ إنني أبيضُ الخلقِ

ثم قال: يا عمّ أخرجنا من الهزل إلى الجدّ، فأنشد إبراهيم:

ليس يزري السوادَ بالرجلِ الشهِ
إن يَكُنْ للسوادِ فيكَ نصيبٌ
م ولا بالفَتَى الأريبِ^(٤) الأديبِ
فياضُ الأخلاقِ منك نصيبي

وقال آخر:

- (١) المسلسل: العذب.
(٢) المضمَر: النجيب من الخيل.
(٣) الشاعر حسان بن ثابت يمتدح الغساسنة.
(٤) الأريب: العاقل اللبيب.

لَامَ العَوَاذِلُ فِي سَوَادٍ فَاحِمَةٍ كَأَنَّهَا فِي سَوَادِ القَلْبِ تَمَثَالُ
وَهَامَ فِي الخَالِ أَقْوَامٌ وَمَا عِلْمُوا أَنِّي أَهِيْمُ بِشَخْصٍ كُلُّهُ خَالُ

وقيل للمدني: كيف رغبت في السواد؟ فقال: لو وجدنا بيضاء لسودناها.

وقال آخر:

يَكُونُ الخَالُ فِي خَدِّ قِيحٍ فِيكْسُوهُ المَلاحَةُ والجَمَالَا
فَكَيْفَ يَلَامُ ذُو عَشْقٍ عَلى مَنُ يَراها كُلُّهَا فِي الخَدِّ خَالَا

وقال آخر:

فاسْتَحْسَنُوا الخَالَ فِي خَدِّ فَقَلْتُ لَهُمُ إِنِّي عَشَقْتُ مَليحاً كُلُّهُ خَالُ

وكان أبو حاتم المدني ينشد:

وَمَن يَكُ مَعجِباً بِناتِ كَسْرِي فَلِإِنِّي مَعجِبٌ بِبِناتِ حَامِ^(١)

وتفاخرت حبشية ورومية، فقالت الرومية: أنا حبة كافور، وأنت عدل فحم. فقالت الحبشية: أنا حبة مسك، وأنت عدل ملح. وقد قال الشاعر:

أَحِبُّ لِحَبِّهَا السُودَانَ حَتَّى أَحِبُّ لِحَبِّهَا سَوَدَ الكَلابِ

وقال آخر:

أشَبَّهُكَ المَسْكَ وَأشَبَّهُتِيهِ قَائِمَةً فِي لَوْنِهِ فَاعِدُهُ
لَا شَكَّ إِذْ لَوْنُكُما واحِدٌ إِنكُما مَن طِينَةٍ واحِدَةٍ

ومما قيل في الصفرة: قال الشاعر:

أَصْفَرَاءُ كانَ الهَجْرُ مَنكَ مَزاحاً لِيالِي كانَ الوُدُّ مَنكَ مِباحاً
كَأَنَّ نِساءَ الحَيِّ ما دَمَتِ فِيهِمُ قِباحاً فَلِما غَبَّتِ صِرْنَ مِلاحاً

وقال آخر:

قالوا بِهِ صَفْرَةٌ شانَتْ مَحاسِنَهُ فَقَلْتُ ما ذاكُ مَن عَيِبَ بِهِ نِزلاً
عِناهُ مَطلوبَةٌ فِي نارٍ مَن قَتَلت فَلَسْتُ تَلقاه إِلا خائِفاً وَجِلاً

ومما قيل في طول اللحية: قيل: إن اللحية الطويلة عش البراغيث. ونظر يزيد الشيباني إلى رجل ذي لحية عظيمة تلتف على صدره وإذا هو خاضب^(٢). فقال له: يا هذا إنك من لحيتك في مؤنة فقال أجل ولذلك أقول:

لِها دَرَهْمٌ لِلدَهِنِ فِي كُلِّ جَمعَةٍ وَأَخْرُ للِحْناءِ يَتَدَبانِ
وَلولا نِوالٌ مِمن يَزِيدُ بِن مَزِيدِ لِأَصَبَحَ فِي حافِئَتِها الحِمانِ^(٣)

(١) بنات حام: أي الزنوج.

(٢) خاضب: يضع الحناء.

(٣) الحمان: القرادات.

وقال إسحاق بن خلف في قصير طويل اللحية .

ماشيتُ داودَ فاستضحكتُ من عجبِ
ما طولُ داودَ إلا طولُ لحيتهِ

وقال ابن المقفع:

تأملتُ أسواقَ العراقِ فلم أجذ
جلوساً عليها ينفضون لحاءهم

كأنَّه والدٌ يمشي بمولودِ
يظنُّ داودَ فيها غيرَ موجودِ

دكاينهُم إلا عليها المواليا
كما نفضتُ عجفُ البغالِ المخاليا^(١)

ومما جاء في عظم الخلقة والطول والقصر . قيل: خرب القهندر^(٢) فبرزت منه جماجم أموات فتصدعت جمجمة فانثرت أسنانها، فوزن السن منها فكان وزنها أربعة أرتال، فأتي بها إلى ابن المبارك فجعل يقلبها ويتعجب من عظمها ثم قال:

إذا ما تذكَّرتُ أجسامَهُم
تصاعَّرتِ النفسُ حتى تهونُ

وأراد ملك الروم أن يباهي أهل الشام فبعث إلى معاوية رجلين أحدهما طويل، والثاني قصير شديد القوة، فدعا للطويل بقيس بن سعد بن عبادة فترع قيس سراويله ورمى بها إليه فلبسها الطويل فبلغت ثديه فلاموا قيساً على نزع السراويل فقال:

أردتُ لكيما يعلمَ الناسُ أنها
وكي لا يقولوا خانَ قيسٌ وهذه
وإني من القومِ اليمانيين سيِّدُ
سراويلُ قيسٍ والوفودُ شهودُ
سراويلُ عادٍ أحرزتها ثمودُ
وما الناسُ إلا سيِّدُ ومسودُ

ثم دعا معاوية للرجل الشديد في قوته بمحمد بن الحنفية فخيَّره بين أن يقعد فيقيمه، أو يقوم فيقعه فغلبه في الحاليتين وانصرفا مغلوبين . وقيل: كان سلمة بن مرة الناموسي أسر أمراً القيس بن النعمان اللخمي الملك، وكان الناموسي قصيراً مقتحماً، واللخمي طويلاً جسيماً، فقالت بنت امرئ القيس: يا هذا القصير أطلق أبي، فسمعها سلمة بن مرة فقال:

لقد زعمتُ بنتُ امرئِ القيسِ أنني
وربَّ طويلٍ قد نزعْتُ سلاحَهُ
قصيرٌ وقد أعيا أباهَا قصيرُها
وعانقتُهُ والخيلُ تدمى نحوها

وقالوا: عظم اللحية يدل على البله، وعرضها على قلة العقل، وصغرها على لطف الحركة، وإذا وقع الحاجب على العين دل على السحد، والعين المتوسطة في حجمها تدل على الفطنة وحسن الخلق والمروءة، والتي يطول تحديقها تدل على الحمق. والتي تكسر طرفها تدل على خفة وطيش، والشعر على الأذن يدل على جودة السمع، والأذن الكبيرة المنتصبة تدل على حمق وهذيان.

ومما قيل في القبح والدمامة: أراد رجل أن يكتب كتاباً لبعض أصحابه فلم يجد من يرسله معه إلا رجلاً

(١) المخاليا: يفضونها من الغبار.

(٢) القهندر: موضع.

وخش الصورة^(١) بشع المنظر فلم يقدر على تحليلته لفرط دماسته، فكتب إلى صاحبه يقول: يأتيك بهذا الكتاب آية من آيات الله تعالى وقدره، فدعه يذهب إلى نار الله وسقره.

ومرّ أبو الأسود الدؤلي بمجلس لبني بشير، فقال بعض فتيانهم: كأن وجهه عجوز راحت إلى أهلها بطلاقتها. وقال الجاحظ: ما أخجلني قط إلا امرأة مرّت بي إلى صائغ فقالت له: اعمل مثل هذا، فبقيت مبهوتاً، ثم سألت الصائغ، فقال: هذه امرأة أرادت أن أعمل لها صورة شيطان، فقلت: لا أدري كيف أصوره، فأنت بك إليّ لأصوره على صورتك. وفي الجاحظ يقول الشاعر:

لو يُسَخُّ الخنزيرُ مسخاً ثانياً ما كانَ إلا دونَ قُبْحِ الجاحظِ
رجلٌ ينبوُّ عن الجحيمِ بوجهِهِ وهو القَدَى في عينِ كلِّ ملاحظِ
وَلَوْ أَنَّ مَرَأَةً جَلَّتْ تمثالُهُ ورآه كانَ له كأعظمِ واعظِ

وقال الأصمعي: رأيت بدوية من أحسن الناس وجهاً ولها زوج قبيح. فقلت: يا هذه أترضين أن تكوني تحت هذا؟ فقالت: يا هذا لعله أحسن فيما بينه وبين ربه فجعلني ثوابه، وأسأت فيما بيني وبين ربي فجعله عذابي، أفلا أَرْضَى بما رَضِيَ اللهُ به. وحج مخنث فرأى رجلاً قبيح الوجه يستغفر، فقال: يا حبيبي ما أراك أن تبخل بهذا الوجه على جهنم. وقال بعضهم لرجل: طلع لي دمل في أفتح المواضع فقال له: كذبت هذا وجهك ليس فيه شيء. وخرج رجل قبيح الوجه إلى المتجر فدخل اليمن فلم ير فيها أحسن منه وجهاً فقال:

لم أرَ وجهاً حسناً منذ دَخَلْتُ اليَمَنَا
فيا شقاءَ بلدةٍ أحسنُ مَنْ فيها أنا

وخطب رجل عظيم الأنف امرأة فقال لها: قد عرفت أني رجل كريم المعاشرة محتمل المكاره، فقالت: لا شك في احتمالك المكاره مَعَ حَمَلِك هذا الأنف أربعين سنة. وقال الشاعر في رجل كبير الأنف:

لكَ وجَةٌ فيه قطعَةٌ أنفِ كجدارٍ قد أدعُوه ببغلة
وهو كالبقُر في المثالِ ولكن جعلوا نصبَهُ على غير قبلة

وقال آخر:

لكَ أنفٌ ذو أنوفِ أنفَت منهُ الأنوفُ
أنتَ في القُدسِ تصلِّي وهو في البيتِ يطوفُ

ومما جاء في الثقلاء: قال مطيع بن أبياس:

قل لعباسٍ أخينا يا ثقيلَ الثقلاءِ
أنتَ في الصيفِ سمومٌ^(٢) وجليدٌ في الشتاءِ
أنتَ في الأرضِ ثقيلٌ وثقيلٌ في السماءِ

(١) وخش الصورة: أي سيء الهيئة والمنظر.

(٢) سموم: رياح حارة مرملة.

ومما جاء في الملابس وألوانها والمعائم ونحوها، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾^(١) وقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾^(٢) وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ» وقال ﷺ: «تَعَمَّمُوا تَرَدَادُوا جَمَالًا» وقال ﷺ: «الْعَمَائِمُ تِبْجَانُ الْعَرَبِ». وكان الزبير بن العوام يقاتل يوم بدر وعليه عمامة صفراء، فنزلت الملائكة وعليهم عمامت صفراء. وبعث رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل فتخلف عن الجيش وأتى إلى رسول الله ﷺ وعليه عمامة سوداء في خز فنقضها رسول الله ﷺ وعممه بيده وأسدلها بين كتفيه قدر شبر وقال: هكذا اعتم يا ابن عوف. وبعث ملك الروم إلى النبي ﷺ جبة ديباج فلبسها ثم كساها عثمان. وكان سعيد بن المسيب يلبس الحلة بألف درهم، ويدخل المسجد. فقيل له في ذلك فقال: إني أجالس ربي. وقيل: المروءة الظاهرة، الثياب الطاهرة. وقيل: ألبس البياض والسواد فإن الدهر هكذا بياض ونهار وسواد وليل.

ومما قيل في لبس السواد قول أبي قيس:

رَأَيْتُكَ فِي السَّوَادِ قَلْتُ بَدْرًا بَدَا فِي ظِلْمَةِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ
وَأَلْقَيْتُ السَّوَادَ قَلْتُ شَمْسًا مَحَت بِشِعَائِهَا ضَوْءَ النُّجُومِ

وقدم تاجر إلى المدينة يحمل من خُمُرٍ^(٣) العراق فباع الجميع منها إلا السود، فشكا إلى الدارمي ذلك، وكان الدارمي قد نسك وتعبد فعمل بيتين وأمر مَنْ يَغْنِي بهما في المدينة، وهما هذان البيتان:

قُلْ لِلْمَلِيحَةِ فِي الْخَمَارِ الْأَسْوَدِ مَاذَا فَعَلْتِ بِنِزَاهِدٍ مَتَعْبُدِ
قَدْ كَانَ شَمْرٌ لِلصَّلَاةِ إِزَارَةٌ حَتَّى قَعَدْتِ لَهُ بِيَابِ الْمَسْجِدِ

قال: فشاع الخير في المدينة أن الدارمي رجع عن زهده وتعشق صاحبة الخمار الأسود فلم يبق في المدينة مليحة إلا واشترت لها خماراً أسود، فلما أنفد التاجر ما كان معه رجع الدارمي إلى تعبه وعمد إلى ثياب نسكه فلبسها. وقال آخر في لابسة الأحمر:

وَشَمْرٌ مِنْ قَضِيْبٍ فِي كَثِيْبٍ تَبَدَّثْ فِي لِبَاسِ جَلَنَارِي^(٤)
سَقَنْتَنِي رِيْقَهَا صَرْفًا وَحَيَّتْ بِوَجَّتَيْهَا فَهَاجَتْ جِلُّ نَارِي

وقال آخر في لابسة ثوب خمري:

فِي ثَوْبِهَا الْخَمْرِيُّ قَدْ أَقْبَلْتُ بِوَجْنَةٍ حَمْرَاءَ كَالْجَمْرِ
فَمِلْتُ سَكْرًا حِينَ أَبْصَرْتُهَا لَا تَنْكُرُوا سُكْرِي مِنَ الْخَمْرِ^(٥)

وقال الصنوبري في لابسة أخضر:

- (١) سورة: الضحى، الآية: ١١.
- (٢) سورة: الأعراف، الآية: ٣١.
- (٣) جمع خمار: غطاء الوجه.
- (٤) الجُلنار: زهر الرمان.
- (٥) من الخمر: أي من اللون الخمري.

وجاريةً أدبتهَا الشطارة
تري الشمس من حسنهما مستعارة
بدت في قميص لها أخضر
كما ستر السورق الجلنارة
فقلت لها ما اسم هذا اللباس
فأبدت جواباً لطيف العبارة
شققنا مرائر قوم به
فحنن نسميه شق المرارة

وقال حكيم لابنه: إياك أن تلبس ما يديم الملا^(١) نظره إليك به، واعلم أن الوشي لا يلبسه إلا الأحمق أو ملك، وعليك بالياض. وقيل: لباس البخلاء الاستبرق لطول بقائه، ولباس المترفين السندس لقلته بقاءه، ولباس المقتصدين الديداج لتوسط بقاءه. وقال بعض الأمراء لحاجبه: أدخل عليّ عاقلاً، فأتاه برجل، فقال: بم عرفت عقله؟ فقال: رأيت يلبس الكتان في الصيف، والقطن في الشتاء، والملبوس في الحرّ، والجديد في البرد.

وقيل: كان لأبرويز عمامة طولها خمسون ذراعاً إذا اتسخت ألقاها في النار فيحترق الوسخ ولا تحترق، وكان له رداء حسن يتلون كل ساعة، وسراويل مجوهره وتكة من أنابيب الزمرد. وقيل: الأقبية^(٢) لباس الفرس، والقراطق^(٣) لباس الهند، والأزر^(٤) لباس العرب. وسئل بعض العرب عن الثياب فقال: الصفر أشكل، والحرمر أجمل، والخضر أقبل، والسود أهول، والبيض أفضل. وقال أفلاطون: الصبغ الشقائقي والروائح الزعفرانية تسكن الغضب، والصبغ الياقوتي والروائح الوردية تحرك السرور، وإذا قرب اللون الأحمر إلى اللون الأصفر تحركت القوة العشقية، وإذا مزجت الحمرة بالصفرة تحركت القوة الغريزية، وإذا مزجت التفاحية بالحمرة تحركت الطباع كلها. وكان مصعب بن الزبير يقول: لكل شيء راحة، وراحة البيت كنسه، وراحة الثوب طيه. وقال بعض الأعراب: رأيت بالبصرة بروداً كأنها نسجت بأنواع الربيع. ودخل بعض العذريين على معاوية وعليه عباءة فازدراه، فقال: يا أمير المؤمنين إن العبادة لا تكلمك، وإنما يكلمك من فيها.

ومما قيل فيمن رذل لبسه وعرف نفسه. قال الأصمعي: رأيت إعرابياً فاستنشدته أبياتاً، وروى أخباراً فتعجبت من جماله، وسوء حاله فسكت سكتة ثم قال:

أأخسي إن الحادثا
لا تنكرن أن قد رأيت
إن كان أثوابي رثا
قال بعضهم: وقيل للشافعي رحمه الله تعالى:
علي ثياب لو تقاسن جميعها
ت عركتني عرك الأديم
ت أخاك في طمر^(٥) عديم
ت^(٦) فلإنهن على كريم
بفلسر لكان الفللس منهن أكثرا

(١) الملا: الناس المجتمعون.

(٢) الأقبية: ج. قباء، لباس طويل مفتوح الوسط.

(٣) القراطق: ج. قرطق، من الأردية.

(٤) الأزر: ج. مزر.

(٥) طمر: لباس بال.

(٦) رثا: باليات.

نفوسُ الورى كانت أجَلَّ وأكبرا
إذا كان عضباً^(١) حيث وجَّهتهُ برى

وفيهن نفسٌ لو يقاسُ ببعضها
وما ضرَّ نصلُ السيفِ إخلاقِ غمدهِ

ودخل بعضهم على الرشيد فازدراه فأنشده: ^(٢)

وفي أثوابه أسدٌ هصورٌ
فيخلفُ طنكُ الرجلِ الطرير^(٣)
فلم يستغنِ بالعُظمِ البعيرُ
ويحبسه على الخسفِ الجريرُ
فلا عارٌّ عليه ولا نكيرُ
فإنني في خياركم كثيرُ

ترى الرجلَ الخفيفَ فتزدريةِ
ويعجبكُ الطريرُ فتبليه
لقد عَظُمَ البعيرُ بغيرِ لبِّ
يصرُفُهُ الصبيُّ بغيرِ وَجِهٍ
وتضربُهُ الوليدةُ بالهراوى
فإن أك في شراركُم قليلاً

ويقال: كُلُّ ما تشتهيه نفسك، والبس ما تشتهيه الناس. وقد نظمه من قال:

وعليك من مهن الثيابِ لباسُ
واجعلْ لباسك ما اشتَهتهُ الناسُ

إن العيونَ رَمَتْكَ إذ فاجأتها
أما الطعامُ فكلْ لنفسِكَ ما اشتَهَتْ

وفي هذا القدر كفاية والله أعلم بالصواب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) عضباً: حاداً قاطعاً.

(٢) هذه الأبيات لكثير عزة في حضرة عبد الملك لا الرشيد كما وهم المؤلف.

(٣) الطرير: الشاب خط شاربه.